المكانة النقدية لابن رشيق القيرواني بين إحسان عباس ومحمد مرتاض

The critical position of Ibn Rashiq al-Qayrawani between Ihsan Abbas and Muhammad Mortad

د. سبقاق صليحة

قسم الآداب واللغة العربية - جامعة محمد خيضر بسكرة (الجزائر)
saliha.sebgag@univ-biskra.dz

تاريخ الإيداع: 2020/04/08 تاريخ القبول: 2020/09/10

ملخص:

حظيت آراء ابن رشيق القيرواني النّقديّة باهتمام واسع من لدن الدّارسين والنّقّاد ، ، وقد استطاعت مؤلفاته في حينها أن تكتسب مكانة مهمّة لدى العرب عموما، وهي مكانة لا تقل أهميّة عن مكانة غيره من النّقاد العرب القدامى الّذين عاصروه .ولم يتوقّف الاهتمام بكتاباته إلى عصرنا هذا ..ومن هنا تستهدف ورقتي البحثيّة النّظر إلى آرائه النّقديّة من زاوية نقديّة ثقافية ،لأبيّن كيف تمت دراسة آراء ابن رشيق النّقدية من قبل كل من إحسان عباس ومحمد مرتاض ؟ومدى انعكاس جدليّة المشرق والمغرب في آرائهما فيه ورغبة كل منهما في الانتصار لعالمه الجغرافي والانساني والعلمي ؟ لنصل إلى بسط رؤيتنا الخاصّة للمتعارضات في آرائهما.

الكلمات المفتاحية : النسق ، المضمر،الأصالة ،المشرق، المغرب،النقاد.

Abstract:

The critical views of Ibn rashiq al-qayrawani were widely admired by scholars and critics, his writings were then gaining an important place among the Arabs in general, a position no less important than the position of other ancient Arab critics who lived though. The aim of my research paper is to look at his critical views from a cultural critical point of view, to show how the critical views of Ibn Rashiq were studied by Ihsan Abbas and Muhammed Murtaz. and the reflection's extend of the dialectics between orient and west in their views and the desire of each of them to triumph for its geographical, Humanitarian and scientific world? So that we can extend our own vision to the contradictions in their opinions.

key words: Authenticity, Pattern, Hidden, east, west, Critics.

مقدمة :

لقد استطاع النّقد المغربي القديم أن يستحوذ على حيّز واسع من الدّراسات التي عملت على إبراز نقّاد المغرب العربي القدامى ، وبسط آرائهم النّقدية حول القضايا المختلفة التي عني بها النّقد عموما ، ولا يستطيع أيّ دارس في هذا المجال أن يتغاضى عن جهود ابن رشيق القيرواني الذي صنف أهمّ كتاب نقدي ما يزال الدّارسون يعودون إليه حتّى يومنا هذا وهو كتاب(العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده)، ويحتكمون إليه في إصدار أحكامهم على كل ما يتعلّق بالإبداع الأدبي وأساسيّاته. ومن أهمّ العوامل التي جعلت كتاب العمدة يتبوّأ مكانة نقديّة خاصة، كونه واكب وعاصر مؤلفات نقديّة بارزة في المشّرق العربي ،وإن كان السّبق الزّمني في النّقد الأدبي عموما يكاد يكون ثابتا للمشرق العربي ، إلّا أنه ثبت أيضا مواكبة النّقد المغربي القديم لنظيره في المشرق، وتباينت علاقات التأثير والتأثر بينهما .

وإنّنا نقتصر في هذا البحث عن اتخاذ ابن رشيق وآرائه النقدية عيّنة للدراسة من منظور النّقد الثقافي ، حيث شكل ابن رشيق ونقده محورا مهما ، ظهرت من خلاله مضمرات متباينة حينما تناوله كلّ من المشارقة والمغاربة بالدّراسة ، وتجلت من خلاله الجدلية القديمة الجديدة حول من هو صاحب السّبق في النقد العربي ، وإلى من تعود أهمّ الآراء النّقدية التي ما نزال نعتمد عليها ؟ومن هو صاحب الإبداع ومن قام بالاتّباع ؟... ومن أجل إلقاء الضّوء على جانب مهمّ من هذا الموضوع الكبير ، نقوم في هذا البحث بالكشف عن آراء كل من إحسان عباس ومحمد مرتاض حول ابن رشيق وآرائه النّقدية ، محاولين في ذلك توخّي الموضوعية ، وبسط استنتاجاتنا التي تحيلنا إلى أنساق ثقافية مضمرة في خطاب النّاقدين.

المكانة النّقدية لابن رشيق _ بين إحسان عباس ومحمد مرتاض _:

على الرّغم من تباين آراء النّقاد المشارقة والمغاربة حول ابن رشيق ، إلاّ أنّه لا أحد منهما ينفي المكانة النقدية الخاصة لابن رشيق في النقد العربي القديم ، فقد فرض نفسه وعمدته على كلّ ناقد، فيبجّله محمد مرتاض في كتابه الموسوم (النقد الأدبي القديم في المغرب العربي) عندما يعدّه " أكبر ناقد عرفه المغرب العربي القديم، بل والعالم العربي حتى حقبة متأخّرة ، فقد ظلّ كتاب العمدة – ولا يزال- يدرّس في الجامعات العربيّة وتستقى منه النّظريات التي قدّمت خدمة جلّى للأدب العربي في هذا الإقليم وفي العالم العربي قاطبة"[1] وهنا تأتي عبارات مرتاض في دائرة تضخيم الأنا المغربيّة وبطريق غير مباشر أيضا فإن في العبارة

محاولة لتقزيم الآخر المشرقي ، حين يوظف أداة الاستدراك (بل) ، وإذا عدنا لعبارة (أكبر ناقد) فهي لا تخرج عن عبارات الأحكام النقدية الفضفاضة التي كانت تطلق في العصر الجاهلي على نحو أشعر العرب، وأهجاهم، وأحسنهم مدحا وغزلا....و يضيف قائلا ".... فكأنّنا حين ندرسه ضمن نقاد المغرب العربي فإنّنا نريد أن ننقص من قيمته ، ونحدّ من شهرته، لأنّ أفكاره ملك للأمّة العربية بأسرها "[2] وإنّنا نرى أنّ في هذا القول نزعة إقليميّة مضمرة والنّقد الأدبي في غنى عنها ، وإذا نظرنا إلى الأمر من زاوية أخرى فالأحرى بمحمد مرتاض أن يشيد بمغربية ابن رشيق خوفا على آرائه من الذّوبان في مظان النّقد المشرقي ، وبالتّالي تفقد آراؤه هويتّها المغربية ،فعلى سبيل المثال فإن الأندلسيين اهتموا بآداب المشارقة ولكنهم ألصقوا هويتهم بأسماء أدبائهم نقّادهم، فسمّوا ابن هانئ بمتنبئ الأندلس ، وابن خفاجة بصنوبري الأندلس ، وحمدة بنت زياد المؤدب خنساء الأندلس...

كما تحدّث محمد مرتاض عن أستاذيّة ابن رشيق في النّقد الشّعري وأورد - في معرض حديثه عن ذلك- قولَ ابن خلدون"وممّن ألّف في البديع من أهل افريقية ابن رشيق ، وكتاب العمدة له شَهُور ، وجرى كثير من أهل افريقية والأندلس على منحاه ، واعلم أن ثمرة هذا الفنّ ،إنّما في فهم الإعجاز من القرآن"[3] والواضح من القول أنّ ابن خلدون أشار إلى ذيوع كتاب العمدة في افريقية و الأندلس ولم يشر إلى مكانة الكتاب في المشرق العربي، ومن هنا يمكننا أن نستشف أنّ آراء محمد مرتاض في ابن رشيق ناقدا ، اتسمت بالتّعميم الّذي ينبغي للدّارس الموضوعي أن يحيد عنه ، وأنّ نزعة التّعصب للمغرب العربي بدت مضمرة لديه وهو يحاول جاهدا الإعلاء من مكانة ابن رشيق النّقدية في ظلّ معرفته التّامة برغبة المشارقة أيضا في نسب كل سبق نقدي لأنفسهم .

أمّا عن المكانة النّقدية لابن رشيق لدى إحسان عباس فتتّضح لنا في كتابه(تاريخ النقد الأدبي عند العرب-نقد الشّعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري) و أثناء تتبّعنا للفصل الذي تحدّث فيه عن ابن رشيق لمسنا حرص إحسان عباس على أن يظهر بمظهر النّاقد الموضوعي ولكنّه حرص نستطيع أن نستدلّ على أنّه مفتعل ، إذ لا نلمس الموضوعية التي هي أساس النّقد ، بل نستشفّ محاولة التّظاهر بها ، فإحسان عباس هو النّاقد الكبير الذي لا ينبغي أن يجانب الموضوعية ! فهو يقول"ولكن ابن رشيق رغم ذلك ناقد قدير ... ولعلّ ابن رشيق أبرز مثل على النّاقد الذي يملك الإعجاب عن طريق شخصيته لا عن طريق الجدّة في الرّأي ..."[4] فهو يبدأ بوصف ابن رشيق (بالنّاقد القدير) أي أن القدرة الكبيرة لابن رشيق لازمة للنّقد

، ثم يناقض نفسه ويقول في نفس الفقرة أن ابن رشيق هو ناقد اكتسب إعجاب الدّارسين عن طريق شخصيّته لا عن طريق الجدّة في الرّأي ، وفي آخر هذا القول نفي لقدرة ابن رشيق النّقدية إذ لا جِدّة له في الرّأي – على حد قول إحسان عباس- وأنّ الدّارسين آنذاك أعجبوا به بسبب شخصيته! وهل إحسان عباس عندما وصف ابن رشيق (بالنّاقد القدير) كان قد جالسه وأعجب بشخصيّته ؟!

وإذا كان محمد مرتاض قد أعلى من قيمة كتاب العمدة على حساب غيره من المظان النّقدية التي سبقته وعاصرته في المشرق والمغرب بشكل يشي بالتّحيّز الإقليمي ،إلا أن إحسان عباس يتخذ نفس الأسلوب المراوغ السّابق ليقلّل من قيمة كتاب العمدة، فهو يقول عن مؤلفات ابن رشيق النّقدية "ويمكن أن نعدّ عمل ابن رشيق في كتبه الثّلاثة متكاملا ، فقد حاول في دراسته لشعراء القيروان في كتاب (الأنموذج) أن يطبّق بعض القواعد النّقدية التي حشدها في كتاب (العمدة) "[5] فمن جهة يصف مؤلفات ابن رشيق بالأعمال المتكاملة كي يوهم القارئ بجديّة ابن رشيق ولكنّه يضمر غير ما يحاول جعلنا نتوهّمه ، ولفظة (حشدها) دليل على المضمر غير الظّاهر للعيان ، فقد استبعد الى محور الغياب ألفاظا كانت ستجعلنا نثق في حسن نواياه، مثل: جمعها ، أوردها ، شرحها ، ولكن فضّل أن تكون لفظة (حشدها) في محور الحضور كي يدفع القارئ بطريق غير مباشر إلى التّشكيك في الآراء النقدية الواردة في العمدة وتصويرها على أنّها مجرد حشد لآراء غيره . ويمعن في هذا الاتجاه المضمر حين يضيف " ولكنّ كتاب العمدة أهمّها وأبعدها أثرا ، فهو كتاب جامع من حيث أنه معرض للآراء النّقديّة التي ظهرت في المشرق حتى عصر ابن رشيق"[6] فكيف يكون العمدة مهمّا وبعيد الأثر وهو مجرّد كتاب جامع للآراء النّقدية التي ظهرت في المشرق قبل ابن رشيق ؟! ألم يكن بإمكان إحسان عباس أن يعلن صراحة أنه يرى أن ليس لابن رشيق شيء من الأصالة النقدية وأنّ كل ما كان يقوله معاد ومكرور ؟ إنّ اللّغة المراوغة التي استعملها إحسان عباس عند الحديث عن ابن رشيق وآرائه ، تزعزع ثقة القارئ في ناقد يعدّ أحد أعمدة النقد الأدبي العربي_ نقصد إحسان عباس_ ، بل إنّ القارئ الفطن سيرجّح أنّ هذا الأسلوب المراوغ الذي يتّخذه ناقد مشرقي في الحديث عن ناقد مغربي يعكس اعترافا ضمنيا بتفوق المغربي في مجال بدأه المشرقي .

وخلاصة القول أن التّحيّز الإقليمي في قضية ابن رشيق وآرائه النقدية شكّل نسقا متفرّدا يحمل وجها خاصّا لدى محمد مرتاض ، ووجها مغايرا لدى إحسان عباس، فلم يكن على محمد مرتاض أن يضخّم من حجم ابن رشيق ونقده بصورة تجعل الدّارس يرى الأنا المغربية من خلال مرايا محدّبة وهو حجم لم يدّعه ابن رشيق لنفسه وكان يمكنه فعل ذلك ، وهو الذي

عرفت عنه الجرأة النّقدية ، فناقد مثله عرف بمخالفة الآراء المألوفة المرويّة عن كبار النقاد ، كان يستطيع الاعتداد بنفسه لو أراد ، دون أن يتنظر مجيء محمد مرتاض ليصفه بصاحب (الأستاذية في النقد الشعري) ، فالموضوعيّة هي صفة ابن رشيق نفسه وهو القائل عن عمدته "وعوّلت في أكثره على قريحة نفسي ونتيجة خاطري، خوف التّكرار ورجاء الاختصار ، إلّا ما تعلّق بالخبر وضبطته الرّواية فإنّه لا سبيل إلى تغيير شيء من لفظه ولا معناه... وكل ما لم أسنده إلى رجل معروف باسمه ولا أحلت على كتاب بعينه فهو من ذلك ... "[7] ، أمّا عن محاولات إحسان عباس المبطّنة لنفي الابتكار والأصالة النقدية عند ابن رشيق فإنها لا تقلّل من مكانة الرّجل ، لأنّ الدّارس الفطن الذي يستخدم الاستدلال المنطقي يلحظ كثيرا من أقوال المشارقة في مباحث النّقد المغاربي ، إذ يلاحظ إنتاجا مغاربيا شبيها بالإنتاج المشرقي فهذا شيء طبيعي ومنطقي ،لأنّ النّقد المغربي آنذاك كان يعيش "مرحلة طبيعية من تأثّر المُقترِض في الحضارة من المُقرِض ، فإذا ترعرعت حضارة الشّعب المَدين وازدهرت ثقافة التّلميذ،فربما فاقت ثقافة الأستاذ وبذّتها...."[8] وهذا شيئ وارد في الواقع ومقبول بالمنطق.

موقفهما من آرائه حول أدبيّة النص:

لقد عمد ابن رشيق كغيره من نقّاد عصره إلى بسط آرائه حول معايير أدبية النّصوص وخاصّة الشّعرية منها ، بل وكان له باع طويل في ذلك لاسيما وهو ناقد وشاعر في آن، والدّارس لمؤلفاته يلمس ميلان ابن رشيق إلى الشّعر وتفضيله له على النّثر ، وقد خاض في معايير الشّعرية كما خاض فيها معاصروه ومن سبقوه، ويورد لنا محمد مرتاض قول ابن رشيق الذي يحدّد فيه كيفيّة نشأة الشّعر في قوله:" وكان الكلام كله منثورا فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها ، وطيب أعراقها وذكر أيّامها الصّالحة ، وأوطانها النّازحة، وفرسانها الأمجاد، وسمائحها الأجواد، لتهزّ أنفسها إلى الكرم، وتدلّ أبناءها على حسن الشّيم، فتوهّموا أعاريض جعلوها موازين الكلام ، فلمّا تمّ وزنه سمّوه شعرا، لأنهم شعروا به،أي فطنوا "[9] والمطّلع على هذا الرّأي يجد أنّه من المنطقي أن يكون االنّثر سابقا للشّعر ، أمّا في حاجة العرب إلى الغناء فإن الدّارس يستدعي آراء النّقاد الذين سبقوا ابن رشيق حول نشأة الشّعر عندما ذكروا غناء حادي الجمال في الصّحراء و رأوا أنّ ذلك هو منشأ الشّعر، أما قوله(شعروا به، أي فطنوا) فهو مأخوذ من كلام أستاذه عبد الكريم النّهشلي في قوله بأن العرب كانت تقول (ليت شعري)أي(ليت فطنتي) وهذا ما ذكره ابن رشيق نفسه في عمدته، ولكنّ محمد مرتاض في تعليقه على هذا القول المركّب من (مسلّمة وتناص وأخذ) يقول:".....إذ أنّ هناك من النّظريّات من يعرف الخلود

والاستقرار كما هو الشّأن بالنّسبة لهذه، والتي تدلّ على عبقرية ابن رشيق النّادرة، وعلى اطّلاع منه واسع، وعلى اجتهاد فكري واضح..."[10]، كيف يجعل مرتاض من مقولة ابن رشيق تلك (نظرية خالدة) ويصف ابن رشيق (بالعبقري النّادر) ؟إنّ هذه الأحكام التي أطلقها مرتاض لا تخرج عن دائرة العاطفة والتّحيّز، وتندرج في نسق (صناعة الصّنم) الذي يحسنه العربي في كلّ العصور ، و إنّ إلصاق صفات الكمال بشخص معيّن ودفع الآخرين دفعا إلى تقبّل ذلك ، يفرز دائما خللا إنسانيا ما ، والخلل في هذه الحالة بالذّات سيكون بِسَيْر الدّارسين المبتدئين خلف آراء مرتاض وعدّ ابن رشيق النّاقد النّادر ،صاحب النّظريات الخالدة، من باب (التّسليم) دون وعي ولا تمحيص، ونسق(التّسليم) لدى العربي بحاجة إلى دراسات ثقافيّة متعدّدة.

أمّا تعليق إحسان عباس عن المقولة السّابقة لابن رشيق، فهو منطقيّ جدا في الجزء الذي تحدّث فيه ابن رشيق عن الفطنة، إذ يقول إحسان:"وإنما أوردت هذه العبارة لأشير إلى أن ورودها في تضاعيف الكلام يوهم أنهّا لابن رشيق، وإنما هي عبارة عبد الكريم التي قدّمنا ذكرها قبل قليل، وأمثلة هذا كثيرة في الكتاب"[11] والمستهجن هنا ليس إرجاعه مقولة الفطنة لصاحبها عبد الكريم النهشلي ولكن المستهجن اعترافه الضّمني بأنّ ابن رشيق يمتهن (الاستحواذ العلمي) عن طريق محاولة إيهام القارئ بأنّ المقولات له وذلك في موضع (الفطنة) وفي مواضيع كثيرة من الكتاب ....فكأن إحسان يتتبع آراء ابن رشيق (ليتصيّد) ما يمكن أن يكون مثلبة في حقّ ابن رشيق وآرائه، وحتّى وإن فرضنا أنّ ابن رشيق يحاول إيهام القارئ بأنّ المقولات له ، فهذا أمر نراه أقلّ ضررا من محاولة إيهام إحسان عباس نفسه للقارئ بأنه يعترف بابن رشيق ناقدا قديرا ، في حين هو يعمل على تشكيك القارئ في كل آراء ابن رشيق ، بل كل المضمرات في خطابه توصلنا إلى أنّ ابن رشيق لا يملك شيئا من الأصالة النقديّة .

وفي مجال الحديث عن معايير شعريّة النّص أيضا أورد ابن رشيق في عمدته مقولة رائجة لدى الدّارسين حول بنية النّص الشعري، وفي آراء كل من إحسان عباس ومحمد مرتاض حولها تباينا يستفزّ الدارس ، ويجعله يلحظ تحيّز كلّ من النّاقدين، ويدفعه أيضا إلى استنكار عدم وجود (النّاقد) الذي يحظى(بالإجماع) لدى الدّارسين العرب، وهذا نسق ثقافي آخر يظهر هنا ، إذ من الصّعب جدّا-إن لم نقل من المستحيل- أن يتّفق العربي مع العربيّ في أيّ من المواقف السياسيّة أو الاجتماعيّة أو العلميّة على شخصيّة واحدة يقتدي بها الجميع ويزكّيها ، فيقول ابن رشيق "والبيت من الشّعر كالبيت من الأبنية : قراره الطّبع، وسمكه الرّواية، ودعائمه العلم ، وبابه الدّربة ، وساكنه المعنى، ولا خير في بيت غير مسكون ،صارت الأعاريض والقوافي كالموازين والأمثلة للأبنية، أو كالأواخي والأوتاد والأخبية ، فأمّا ما سوى ذلك من محاسن الشّعر

فإنمّا هو زينة ولو لم تكن مستغنى عنها."[12] وقد وصف محمد مرتاض هذا القول بأنه" من آراء ابن رشيق المبكرة" [13] فإن كان هذا الرأي مبكّرا فإنه ليس مبتكرا لأنّ العرب قديما كثيرا ما شبّهت البيت من الشِّعر بالبيت من الشَّعر، وذِكْر ابن رشيق لجزئيات هذا التّشبيه الحسّي يندرج فقط ضمن حرصه على إفهام القارئ ، أمّا إحسان عباس فإنه حين تعرّض لرأي ابن رشيق السّابق حكم عليه بأنه "ليس له في هذا المجال إلاّ طرافة في القول "[14] والمتمعّن يلمس أن استعمال إحسان عباس لألفاظ معينة في أحكامه على آراء ابن رشيق ليس اعتباطيا، ومنها لفظ (الطرافة) هنا ،وطرافة الحديث في المعاجم العربية تعني حلاوته، فهل كان ابن رشيق يعمد إلى أن يقدّم للقارئ (أحاديث حلوة) أو آراء نقدية؟! وأشباه هذه اللّفظة غير البريئة كثر في كتاب إحسان عباس حين يتحدّث عن ابن رشيق ومن ذلك لفظتا (فذلكة)و(حذلقة)، فإذا عدنا للمعنى المعجمي لهاتين الكلمتين بالذّات وجدنا أنّ الفذلكة تعني: مجمل ما فُصِّل وخلاصته، والحذلقة تعني : التّصرف بالظّرف و إدارة النّظر[15]، وإذا كان إحسان عباس يقصد هذا المعنى المعجمي للّفظتين فإنّنا نتقبّله من باب أنّ ابن رشيق جمع آراء غيره من النّقاد وفحصها وأبدى رأيه فيها ، ولكن إذا أخرجنا اللّفظتين إلى السّياق العامي فإنهما كلمتان لا تقالان إلاّ عن ثرثار يتلاعب بالكلمات ، وقد لا يقفز هذا السّياق العامي إلى ذهن قارئ عادي ولكن تتبع مسارات خطاب إحسان عباس يجعلنا نعتقد أنّ هذا السّياق العامي أقرب إلى ما أراد قوله لنا، وبهذا فهو يقول الشّيء ولا يقوله وهذه أهم صفات الخطاب الذي يقوم على المفارقة اللّفظية. ثم وكأنّ إحسان عباس تفطّن إلى أنّه ينبغي في النّقد الأدبي التّصريح لا التّلويح –وليس التلميح- فأردف معلنا " وليس في القول من جدّة فكريّة ولكنّه جامع للآراء السّابقة في عبارة موجزة ،ولست على يقين من أن هذه العبارة نفسها لابن رشيق"[16] وهذا يعني أنه انتقل من التّشكيك في مقولة ابن رشيق إلى التّشكيك في كتاب العمدة نفسه لأن العبارة وردت فيه.

وقد عدّ ابن رشيق خلوّ النّص الشّعري من شبهة السّرقة الأدبية سبيلا إلى الاعتراف بشعريّة النص ومعيارا لتحقّق أدبيّته ،وقد فصّل وأطنب في الحديث عن قضية السّرقات ، وقد أقر محمد مرتاض ذلك بقوله " أبان ابن رشيق عن ثقافة نقدية واسعة واجتهد في التوصّل إلى مصطلحات لم يسبق لها ، ونقل بعضها عن الحاتمي في (حلية المحاضرة)"[17] والمتتبع لرأي ابن رشيق في قضية السّرقات يجد أنه وضع لها ستة عشرة مصطلحا وهي : الاصطراف ، الانتحال، الإغارة، النصب، المرافدة ، الاهتدام، النظر والملاحظة، الاختلاس، الموازنة ،العكس، المواردة، الالتقاط، التلفيق، كشف المعنى، الشعر المحدود وسوء الاتباع([18]) وهذه المصطلحات جلّها واردة في كتاب (حلية المحاضرة) للحاتمي، كما أنّ كلّ مصطلح منها يوحي بمعنى السّرقة، وإن

كان مرتاض قد ذكر أنّه نقل بعضها عن الحاتمي إلاّ أنّه لم يذكر المصطلحات التي لم يسبقه إليها أحد –على حدّ قوله- وكان حريّا به أن يفعل ذلك.... إنّ وظيفة النّاقد تعتمد على الأدلّة والأدوات الإجرائية اللّازمة لتعضيد فكرة ما أو تفنيدها ،أمّا إطلاق الأحكام في هذا المجال فإنه يدخل ضمن دائرة تضخيم الأشخاص ،وهي المعضلة التي يشهدها مجتمعنا العربي في كل العصور.

وإذا سلّمنا بأنّ محمد مرتاض عرض لنا ابن رشيق وآراءه من خلال مرايا محدّبة دفعتنا إلى التّسليم بوجود أنساق ثقافية مضمرة ترتبط بتكوين الإنسان العربي ونزعته العصبيّة و الذّاتية والإقليمية ، فإنّ إحسان عباس فعل الشّيء نفسه ولكن من خلال مرايا مقعّرة، كشفت أنساق مضمرة لا ترومها النّفس الموضوعية، فهو يقول عن تعرّض ابن رشيق لقضية السّرقة ما يلي :"وعرض في أحد الفصول الأخيرة من العمدة لقضية السّرقة في الشّعر موردا فيها آراء العلماء وبعض أمثلتهم"[19] فإذا كان يعترف بعدم وجود أيّ ابتكار يخصّ ابن رشيق في قضية السّرقات ، ألم يكن بإمكانه أن يحدّد لنا بالضّبط في أيّ فصل من العمدة تحدث ابن رشيق عن هذه القضية؟ عوض أن يقول –في أحد الفصول الأخيرة- وهو النّاقد الذي وضع كتاب العمدة على طاولة التّشريح فكيف لا يلتزم الدّقة العلميّة التي هو منوط بها ؟ ثم هو يذهب إلى أبعد من هذا عندما يضيف: " حتى إذا تعرّض هو نفسه لتهمة السّرقة _ يقصد ابن رشيق _عمل رسالة (قراضة الذهب) ليدلّ على اطلاعه ومقدرته في هذه النّاحية ، بما يضعه في مصاف من تعرّضوا لهذا الموضوع من النّقاد" [20] وهذا تأكيد منه على أنّه لم تكن لابن رشيق نية الخوض في الحديث عن السّرقات لولا أنه هو نفسه –أي ابن رشيق- قد أُتُهِم بالسرقة، وكأنّ تخصيص فصل من كتاب العمدة ورسالة كاملة (قراضة الذهب) كان فقط من أجل أن ينأى بنفسه عن هذه التّهمة، والسّؤال الملحّ هنا كيف استطاع احسان عباس أن يدرك نوايا ابن رشيق؟ إنّنا نرى أن إحسان عباس يعلن صراحة أن ابن رشيق لما خشي ثبوت تهمة السّرقة بحقّه، قام بتأليف (قراضة الذهب) ليبيّن للقرّاء أنه على اطّلاع تامّ بقضية السرقات مما يخرجه من دائرة المنتحلين، إنّ هذا التّخمين غير البريء الذي قدّمه لنا إحسان عباس يجعلنا نستدعي نسق التّشكيك في النّاجحين ومحاربتهم، وهو نسق موجود في مجتمعاتنا العربية ويستشري في طبقة النّخبة على وجه التّحديد ، وسواء اقتنعنا بهذا الاستدعاء أو استبعدناه فإننّا لا ننكر أنّ الكثير من الآراء النّقدية والأفكار التّنويرية هوجمت فقط لهذا السّبب . وهل يحقّ لإحسان عباس أن يبني تحليلاته لآراء ابن رشيق حول قضية السّرقات على مجرد تخمينات وظنون حين يؤكد أيضا على أنه " ليس لإبن رشيق في الباب كلّه رأي ذاتي جديد ، والظّن قويّ بأن ابن رشيق لم يعر مبحث السّرقات اهتماما ، لإيمانه بأن السّرقة قد أصبحت

قاعدة عامّة في الحياة الشّعرية لعصره"[21] فهنا أيضا يدخل إحسان في خبايا نفس ابن رشيق ليخبرنا أنه كان مؤمنا بأن السّرقة ليست تهمة أصلا، بل وأكثر من ذلك فهو يتّهم جميع الشعراء المغاربة في عصر ابن رشيق بالسّرقة ، ولم نجد في مجمل كتاب العمدة تصريحا أو تلميحا أورده ابن رشيق يعترف فيه بإيمانه بأن السّرقة أصبحت قاعدة عامّة في الحياة الشعريّة في عصره، فإذا افترضنا حسن النية لدى إحسان عباس ، فإن عبارة (الظّن قوي) تدفع القارئ إلى التّشكيك في شخصيّة ابن رشيق (من حيث عَدِّه سارقا) ومن حيث مقدرته كناقد على الخوض في قضية السّرقات.

خاتمة:

نؤكّد في ختام هذه الورقة البحثيّة أنّه لم يكن همّنا كشف الصّورة التي تعكسها المرايا المحدّبة لمحمد مرتاض ولا التي تعكسها المرايا المقعرة لإحسان عباس، بقدر ما كانت حيرتنا منصبّة حول كيف - والحال هذه - يتلقّى الدّارس المبتدئ وطلبة الدّراسات العليا ابن رشيق وآراءه النقدية، ويمكننا تلخيص نتائج البحث في النقاط الآتية:

- الألفاظ والتعابير تشكّل نسقا لغويّا خاصّا يحيل إلى أنساق ثقافية مضمرة تغيّر منحى الدّلالة الأولى ، إذ يجد الدّارس نفسه أمام صورتين مختلفتين لابن رشيق تعكسهما مرايا ناقدين عربيين مهمّين.
- المكانة النقدية لابن رشيق تجاذبتها نزعات إقليمية ألقت بظلالها حول الآراء التي تناولت نقده.
- التباين الحاصل بين آراء كل من إحسان عباس ومحمد مرتاض حول شخصية ابن رشيق يحدث أيضا تباينا في التلقي لدى طلبة الجامعات على وجه الخصوص ،وبهذا لا تتضح صورة ابن رشيق أمامهم ، بل قد تضطرب.
- إنّ النزوع إلى تضخيم أو تقزيم الآخر في النقد العربي من شأنه أن يبعد النقاد عن الاهتمام بقضايا النص العربي ويسهم في التأخير بالنهوض بالنقد العربي عموما.

الهوامش:

[1]-محمد مرتاض ، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، منشورات اتحاد الكتاب العرب،ط1، 2000 ، ص79.

[2]- محمد مرتاض ، النقد الأدبي القديم ، ص79.

[3]- ابن خلدون، المقدمة، الدار التّونسية للمؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ،ط1، 1984 ، ص720.

[4]- إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ،الأردن ، دط ،2006 ، ص453.

[5]- إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص451.

[6]- إحسان عباس ، تاريخ النقد الأدبي عند العرب ، ص451.

[7]- ابن رشيق القيرواني ، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده تح: محي الدين عبد الحميد ، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء، جزء1، دت، ص3.

[8]- محمد اليعلاوي ،أشتات في اللغة و الأدب والنقد ، ط1 ، دار المغرب الاسلامي ،دط، بيروت، لبنان، 1992، ص136.

[9]- العمدة، ص19

[10]- محمد مرتاض، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، ص53.

[11]- إحسان عباس ،تاريخ النقد الأدبي عند العرب، ص454.

[12]- ابن رشيق ، العمدة ، ص78.

[13]- محمد مرتاض، ص56.

[14]- إحسان عباس، ص456.

[15]- ينظر قاموس المعاني https://www.almaany.com/ar/dict/ar-ar/%D9%81%D8%B0%D9%84%D9%83%D8%A9/

[16]- إحسان عباس ، ص456.

[17]- محمد مرتاض، ص100.

[18]- ينظر،محمد مرتاض: ص100.

[19]- إحسان عباس ،ص451.

[20]- المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[21]- المرجع نفسه، ص463.

المراجع:

- ابن خلدون،المقدمة، الطبعة الأولى ،الدار التّونسية للمؤسسة الوطنية للكتاب ، الجزائر ،1984.
- ابن رشيق ،أبو علي الحسن،العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده ج1 ،بدون رقم الطبعة، دار الرشاد الحديثة ، الدار البيضاء، المغرب،1981
- بومزبر،الطاهر بن حسين،التواصل اللساني والشعرية، بدون رقم الطبعة،الدار العربية للعلوم ناشرون ، منشورات الاختلاف ،الجزائر،2007.
- عباس، إحسان، تاريخ النقد الأدبي عند العرب، بدون رقم الطبعة،دار الشروق للنشر والتوزيع ، عمان ،الأردن2006.

- الغذامي، عبدالله،القبيلة والقبائلية أو هويات مابعد الحداثة ، الطبعة الثانية، المركز الثقافي العربي ، بيروت، لبنان2009 .
- مجمع اللغة العربية، **المعجم الوسيط**، الطبعة الرابعة، مكتبة الشروق الدولية، القاهرة،2004.
- مرتاض، محمد، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي، الطبعة الأولى،منشورات اتحاد الكتاب العرب ، دمشق، سوريا،2000.
- اليعلاوي، محمد أشتات في اللغة و الأدب والنقد ، الطبعة الاولى ، دار المغرب الاسلامي، بيروت، لبنان،1992.